The effectiveness of the antibody diodes in the objective formation lament the Andalusian cities

فاعلية الثنائيات الضدية في التشكيل الموضوعي في رثاء المدن الأندلسية(دراسة تحليلية)

ا.د. علي كاظم محمد علي المصلاوي رازقية كاظم عبد الجبوري
جامعة كربلاء – كلية التربية للعلوم الأنسانية
قسم اللغة العربية

البحث مستل من رسالة الماجستير .

الملخص

تمثل الثنائيات الضدية في حياة الانسان ظاهرة طبيعية، وعاها الإنسان حيث وظف هذه الثنائيات للتعبير عن رؤيته للعلاقات القائمة بين مكونات الوجود ولعل الشعراء، هم أكثر الناس وعياً لصورة الثنائية هذه، حيث دفعهم هذا الوعي الى توظيف الثنائيات في التعبير عنمضامينهم الشعرية، وشعر رثاء المدن يحمل في طياته معاني التناقض والتنافر والتضاد، لأنّ هدفهُ الرئيس هو إعلاء كلمة الحق وكلّ مايمثُاليها بصلة، واحباط كلمة الباطل وكل مايتصل به، لذا نشأ التضاد في شعر رثاء المدن من شعورين متضادين هي الايمان والشرك عكسهما الشاعر في صورة ظاهرة ومستترة تعدُّ ركائز ينهض بها البحث، أهمها، الحق/ الباطل، الايمان/ الشرك، الاسلام/ الكفر، الحياة/ الموت، ويتقابل الظرفات المتضادان وقد يتكاملان، ولا أهمية لطرف منهما بمعزل عن الآخر .

Abstract

Antibody diodes in human life is a natural phenomenon, and human know terms employed these diodes to express his vision of the relationships between the components exist and perhaps poets, they are more people aware of the binary image of this, with them this awareness to employ diodes to express their implications noodles, hair lament cities carries the meanings of contradiction and dissonance and contrast, because his main goal is to uphold the right word and every connect with it , foil word falsehood and all its relevant, so grew the contrast in hair lament cities of opposite is faith and polytheism reversed poet in the form of overt and covert longer pillars rise out Find, most importantly, the right / wrong, faith / polytheism, Islam / disbelief, life / death, and meet conditions Almtdhadan were complementary, and the importance of the Party in isolation from each other.

المقدمة:

لقد شغلت الثنائيات الضدية مكاناً واسعاً وحيزاً في الفكر الانساني عامة وفي شعر رثاء المدن خاصة، إذ كان لحظورها تأثير واضح ومتميز، موضوعياً وابداعاً وفكراً في المجالات الحياتية والنفسية والفلسفية والأدبية... ومثل النكبات الأجتماعية التي تصيب الامم والشعوب كاحتلال البلدان وعبث الاعداء بها، لذا فهذه الموضوعات قائمة على ضدين مما يجعل لغة التناقض مرشحة للسيادة على فضاء النص .

وهذا ماوجدته في شعر رثاء المدن الاندلسية، حيث اتضحت فيه الأزمات الشخصية والنكبات الأجتماعية، فكان ميدان بحثي الموسوم بـ(فاعلية الثنائيات الضدية في التشكيل الموضوعي رثاء المدن الاندلسية) الذي تناولت فيه محورين هما :

المحور الاول : التعريف برثاء المدن .

المحور الثاني : التعريف على مصطلح التضاد قديماً وحديثاً .

التمهيد:

1- شعر رثاء المدن يهدف الى تصوير نكبة الاندلسيين، بفقدان أجزاء من بلادهم واستنهاضهم على الصمود ومواجهة الاعداء، وهو يستنهض المسلمين ويدعوهم لإنقاذ الاندلس والجهاد في سبيل الله[1] .

فرثاء المدن هو البكاء على هذه المدن التي فقدت أهلها وعمرانها وحضارتها، فقدت نتيجة غدر الصليبين النصارى، وحقدهم الدفين على الاسلام والمسلمين كافة، فضلاً عن ضعف المسلمين أنفسهم، وتنازعهم أمرهم وعدم توحدهم ضد خطر الصليبين، وتفشي الظلم وفساد الحكام والاستبداد والعبودية، ومصادرة أموال الناس من قبل الحاكمين، والنهب والسلب لخيرات البلاد .

وقد كانت نشأه شعر رثاء المدن بالأندلس نابعة من واقع ظروف الحياة في الأندلس، وكانت نشأة شعر رثاء المدن بالاندلس إثر سقوطها في فتن البرابرة او فتن الصراع على السلطة، تلك الفتن التي على رأس المائة الرابعة للهجرة، اذ كانت المدن الاندلسية في العقد الاول من القرن الخامس الهجري وحتى نهاية القرن التاسع تتعرض الى ماتعرضت له من فتنه سياسية، وقلاقل اجتماعية وحروب طاحنة، مدمرة [2]، فنظم الشعراء تلك الاحداث قصائد مبكية، فرسموا الاحداث الخاصة بسقوط المدن في تلك الحقبة.

وأهمية رثاء المدن أنه، يكشف عن جوانب ثرية من التاريخ السياسي القائم بين المسلمين والنصارى في الأندلس، كما يكشف جانباً من النقد الذاتي الذي واجه به الأندلسيون أنفسهم حتى أدركوا، أنّ الإنغماس في حياة اللهو والترف أدى إلى سقوط راية الجهاد وأن الحكام والأمراء، حرصوا على ملكهم الخاص فأضاعوا ملكاً أعظم .

2- مفهوم الثنائيات الضدية :

لغة: يدل مفهوم الثنائيات الضدية على معنى واحد هو ((ثنيتُ الشئ وجعلتهُ إثنين))[3]، أما إصطلاحاً فالثنائية ((هي القول بزوجية المبادئ المفسرة للكون، كثنائية الأضداد وتعاقبها، أو ثنائية الواحد والمادة من جهة ماهي مبدأ، أو ثنائية عالم المثل وعالم المحسوسات عند إفلاطون))[4] .

التضاد في النقد العربي :-

التضاد هو اسلوب بلاغي قديم وقريب من مصطلحات عدة وردت في تراثنا البلاغي مثل : الطباق، والمطابقة، والتطبيق، والتكافؤ، والمقابلة، وغيرها من الفنون البلاغية التي حملت دلالة التضاد .

إنّ سيبويه (ت 108هـ) كان من أوائل علماء العربية الذين أشاروا إلى مصطلح الطباق، اذ ذكر في كتابه ماسماه بباب اللفظ للمعاني :((إعلم أن من كلامهم إختلاف اللفظين لأختلاف المعنين، ... ، نحو : جلس وذهب)) [5]، وأفرد أبو العباس بن ثعلب (ت291هـ) قسماً خاصاً في كتابه (قواعد الشعر) وعنونه بـ(مجاورة الاضداد)، وأراد به الطباق، وهو عنده : ((ذكر الشئ مع مايعدهم وجوده)) [6]، ومثل ذلك بقوله تعالى ﴿**ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ**﴾[7]

أمّا قدامة بن جعفر (327هـ) فقد انفرد بتسمية الطباق تكافؤا وهو عنده : ((أن يصف الشاعر شيئاً أو يذمه، أو يتكلم فيه، أي معنى كان، فيأتي بمعنيين متكافئين، والذي أريد بقولي متكافيئين في هذا الموضوع، أي متقابلين، إمّا من جهة المصادرة أو السلب والإيجاب أو غيرها من أقسام التقابل فمثلاً قول (مر وحلو) تكافؤ)) [8]، وأطلق ابن رشيق القيراوني (ت463) حين قال : ((المطابقة عند جميع الناس : جَمعك بين الضدين في الكلام أو بيت شعر)) [9].

ويقول الجرجاني (ت471هـ) التطبيق قاصداً به التضاد، قال : وأمّا التطبيق، فأمره أبين، وكونهُ معنوياً أجلى وأظهر، فهو مقابلة الشئ بضده والتضاد بين الألفاظ المركبة محال وليس لأحكام المقابلة ثم مجال)) [10]، ويقسم إبن أبي الاصبع المصري (ت 654هـ) الطباق، على ضربين ((ضرب يأتي بألفاظ الحقيقه، وضرب يأتي بألفاظ المجاز، فما كان منه بلفظ الحقيقه سمى طباقاً، وما كان يلفظ المجاز سمي تكافؤا)) [11].

ومن التضاد المحدثين الذين أهتموا في الجانب التطبيقي بنية التضاد في النصوص الشعرية، كمال أبو ديب الذي حصر العلاقات بين الثنائيات **بـ ثلاث علاقات :-**

أ- علاقة نفي سلبي او تضاد مطلق .

ب- علاقة توسط تهدف إلى إعادة الخلق عبر التحول والتحويل .

ج- علاقة تكامل، وتناغم، وإغناء، وإخصاب [12] .

ويرى الدكتور محمد مفتاح ان مفهوم الثنائية بين لفظين أن ((يرجعان الى نفس الطبقة فيشتركان في بعض المقومات ويختلفان في بعضها، مثل : حار/ بارد، وصاعد/ نازل)) [13].

التضاد في النقد الغربي :-

التضاد في اداء المعاني كان من وقت مبكر عند الفلاسفة اليونانين وتمازج مع أفكار روادها البارزين من أمثال سقراط، أفلاطون، أرسطو، وهر قليطس.

اذ راى سقراط :((إن كل شئ له ضد يتولد من ضده فالعدل ينشأ من الجور، واليقظة من النوم، والنوم من اليقظة، ولابُدَ ان يتولد الموت من الحياة والحياة من الموت، وإلا فقد تخالف الطبيعة قاعدتها المضطردة في جميع الاشياء))[14] .

وأفاد العالم اللغوي كريماص من التعارضات الثنائية في دراسته المعنى فصنف التقابلات إلى أنواع عدة هي:-

1- تقابلات محورية لايقبل وسطاً : زوج/ زوجة.

2- تقابلات مراتيبية : كبير/ وسط/ صغير .

3- تقابلات متناقضة : متزوج/ أعزب .

4- تقابلات متضادة : صعد/ نزل .

5- تقابلات تبادلية : إشترى/ باع [15] .

كان اهتمام الغربيين بدراسة الثنائيات الضدية في النصوص الادبية واهتمامهم بالتضاد كظاهرة لها رؤى عميقة في إدراكهم قدرة التضاد على إبراز جمالية النصوص الادبية.

الرثاء.

يُعد الرثاء غرضاً من الأغراض المهمة في الشعر العربي، ومِن فنون الشعر التقليدية التي احتذى بها شعراء الأندلس أجدادهم المشارقة مع شئ من التجديد.

فالرثاء ((من أبرز فنون الشعر الاندلسي اقتفاءً لآثار طريقة العرب القدماء))[16]، فهو يعني اختيار الجانب الحزين من جوانب العواطف الانسانية، فهو يرجع جميعهُ إلى المصاب الجلل الذي يبتلي فيها الفرد أو الأُمة بين الحين والاخر[17]، لذا فالرثاء ((عاطفة حزن وإعجاب وذكر لحسنات المرثي من خير وشجاعة وكرم وتأبين الموتى بذكر محامدهم يمثل أصدق المشاعر الانسانية وهي تواجه أعتى ضربات الدهر حين تفارق أعز الناس))[18].

وهو أكثر فنون الشعر تأثيراً في النفوس وسمتهُ ((ان ينبث عن سبب صحيح غير زائف ولا مصطنع حتى يكون عميقاً يهب للأدب قيمتهُ الخالدة))[19]، ونجد عند النقاد القدماء كلاماً مهماً في الرثاء.

فقدامة بن جعفر[20]، وابن رشيق[21]، لهما رأيٌ مشترك في الرثاء، فهو لايختلف عن المدح، إلاّ بذكر مايفيد إنّهُ هالك كأن يقول الشاعر مضى وتولى وماشابه ذلك، ونشير هنا إلى أن الدارسين المحدثين اختلفوا فيمن يستحق الرثاء بعد الموت فبعضهم يرى ((أنّ الرثاء لايكون لمن مات في الحرب، لأنَّهُ ماخرج إلا ليموت، ومن ثمَّ فرثاؤه يعدُّ هجاء له، وإنما يكون الرثاء لمن مات حتفَ أنفهِ أو اغتيل في غير حرب))[22]، وبعضهم الآخر يرى ((أن الرثاء يقوم على استنهاض الرجولة ابتغاء الثأر للقتيل، الأمر الذي قد يعني أنَّ الذين كانت أرواحهم لاتسيل على حدود السيف لم يكونوا ينالون رثاء ...))[23].

فالرأي الاول ينظر إلى الرثاء نظرة مثالية، قد يخالفها الواقع أحياناً.

أما الثاني فينظر إليه ((من زاوية اجتماعية ، فهو ذو وظيفة كونهُ يعدُّ وسيلة من وسائل شحذ العزيمة واستنهاض الهمم ...))[24].

ونجد الرثاء عند الدكتور شوقي ضيف لما فيه من اتساع وشمولية اذ تأخذ المراثي عنده ثلاثة أشكال ((هي الندب والتأبين والعزاء، والندب هو: البكاء على الميت بعبارات مشجية، والفاظ محزنة تصدع القلوب القاسية، وتذيب العيون الجامدة، كما إنهُ بكاء المدن التي خربت والممالك التي دالت))[25].

اما أهل الأندلس فقد أحبوا بلادهم وأدركوا مكانتها الحضارية والثقافية على مدار التاريخ، وكذلك احبها الشعراء وتعلقوا بطبيعتها الساحرة، فأصبحت جزءاً منهم، فما من غرض ينظمون فيه أشعارهم الا وكان لذكر الطبيعة فيها سهم كبير.

الا إنّ تقلب الاوضاع, والحروب والفتن المتواصلة مع الاسبان، وشدة العواصف بين العرب والمسلمين انفسهم كل هذا جعل اوصال الاندلس تتمزق مما فسح المجال للفرنجة، أن يستولوا على البلاد، ويستعبدوا العباد، فكان التشردُ والضياع والهزيمة والألم، والقهر والظلم، والاغتصاب والتآمر الحاقد وسقوط المدن الحصينة، وتمزق ثغور الاسلام محدقاً بالاندلس، فأحسَ الشعراء في هذه الاحداث، فرثوا الملوك والامراء، وقبلها رثوا الممالك والمدن الاسلامية بشعر ينفطر له القلب وتتمزق له الاوصال لما حواه مِن خصائص موضوعية وفنية كان لها عميق الأثر في النفوس، فكان وصف المأسي في الاندلس متمماً لنداءات الشعراء بالاغاثة واستنهاض الهمم، وادراك حال العرب والمسلمين[26].

لذا فان اعتماد الشعراء في الاستنجاد والاستغاثة على موضوع الرثاء كان له أبعاد كثيرة منها، إنّ الشاعر يريد استنهاض الهمم وإيقاظ الضمائر وتنبيه الغافلين حتى يهبوا للاستغاثة والنجدة، وهذا الرثاء هو في الحقيقة رسالة واضحة توضع بين يدي المنقذين للنظر في حال الأندلسيين، لأن النكبات التي أصابت الاندلسيين وما فيها من ويلات كانت شبيهة بالإبادة الكلية للأندلسيين[27].

ولذا فان الصلة بين الرثاء والاستغاثة قوية، إذ لابدَّ مِن تقديم أسباب هذا الإستنهاض، ولعل ذكر التخريب ودمار المدن والحصون ومعاناة الأمة وغيرها، يُعدَّ سبباً قوياً للأستغاثة والنجدة، ماكان أحد يدري إنّ الدهر لايبقي على حاله، فهو في تقلبٍ مستمرٍ يقبل ويدبر.

فالأيام أخذت تعصف بملوك العرب وامرائهم وتحاول قلعهم بعد طول عهد فكانت الآلآم والأهات والاشجان، والنفوس الحائرة التي لاتعلم شيئاً عن مصيرها المجهول.

ومن هنا تأتي المهمة العسيرة التي ((اضطلعَ بها الشعراء في كُلَّ زمان ومكان،حيث حملوا على كواهلهم مسؤوليات تاريخية جسام،فهم وإنْ كانوا يدركون بأنَّهم لن يغيروا من الامرِ شيئاً إلاّ أنهم يعزفون على شباباتهم محاولين إيقاظ النيام على وقع ألحان حزينة شجية))[28].

وبالرغم من تفتيت وتمزيق الوحدة الأندلسية من قبل العدو، وترسيخ الفرقة بين أجزائها، فان الشعراء ظلوا ينظرون الى الاندلس نظرة إكبار وإجلال يناضلون من أجلهِ، لذا فإن الرثاء لم يكن الهدف منة البُكاء والتفجع والتوجع على ما فُقِد وَخُرِّب، فحسب وإنّما كان الهدف منهُ أيضاً، بثَّ روح الحماسة، وإيقاظ الضمائر النائمة وإثارة النخوة للجهاد والوقوف في وجه الصليبين، لذا نجد الرثاء في هذه الاشعار ممزوج بالإستنفار مرة، وبالإستنهاض مرة أخرى، وكان مِن بين الوسائل التي استعملها الشاعر للوصول إلى مبتغاه هي الثنائيات الضدية، إذ كانت حاضرة بشكل يثير المتلقي مثيراً إعجابهُ بشتى الصور والايقاعات الموحية.

ومن النماذج التي قيلت في رثاء الاندلس ماقالهُ إبراهيم بن خلف القرشي[29] :-

أَلاَ مسْعِدُ مُنْجِزُ ذُو قَـطَـنٍ ... يَبْكـي بدمــع مُعِيـنٍ هَتِنِ
جَزِيرَةَ أَندَلُــسٍ حسْــرَةً ... أَلاَ غِالبَ مِـــنْ حِقْدِ الزَّمَنِ
....
وَيْبكي الأَيّامَ ويَبْكِي اْليتامَى ... وَيحكـي الحَمَامَ ذَوَاتِ الشَّجنِ
وَيشْكو إِلى اللهِ شَكْوَى شَجٍ ... ويَدْعُوهُ فــي السَّرَّ ثُمَّ العَلَنِ
وَكَانَتْ رِباطا لأَهْلِ التُقّــى ... فَعادَتْ مَناطاً لأَهْــلِ الوَثَنِ
وَكَانَتْ مَعَاذاً لأهلِ التُقّــى ... فَصَارَتْ مَلاَذاً لِمَنْ لَــمْ يُدِنِ
وَكَانتْ شَجىً في قُلوبِ اْلعِدا ... فَأَضْحَى لَهُمْ مَالَها مُحْتَجنِ[30]

مثلت الثنائيات الضدية في هذه الابيات بؤرة موضوعية من خلال ماوظَّف الشاعر من الالفاظ التي تدلُّ على التضاد الظاهر باللفظ مثل (حسرة الأندلس لما فعلهُ الزمن الحقود لها) وبين (حالها في الماضي والحاضر) وبين سياقات متضادة هي دار تقوى وإيمان يقابلها دار كفر وضلال) وبين (الاعمار والتخريب) وبين (الدعوة في السرَّ والعلنَّ)، إنَّ الشاعر تفاعل مع أزمات بلاده فأبدع في هذا اللون قصائد باكية تصوَّر ما وقع عليها من مآسٍ مؤلمة، ومن هنا كان هذا الرثاء وليد ظروف الأندلس الخاصة.

إذ بدأ الشاعر فيها بوصف حالة الأندلس وروعتها وجمالها قبل النكبة متمثلاً في قوله (كانت ...) وحالها بعد النكبة وما آل اليها من قهر وبؤس وتدمير وتقتيل، وهكذا جعل الشاعر من هذه الثنائية (الايمان والكفر) مُحوراً للصراع في نصوصه الشعرية بين طرف الايمان وطرف الكفر وبهذا حولت عاطفة الشاعر الأليمة والحزينة والأحاسيس صوراً تنبض بالحياة وتثير الألم والشجن عن زوال المدينة، ويعرض لنا صوراً كثيرة أخذها من الواقع الذي عاشهُ وهذا يدلُّ على براعة الشاعر في صياغ هذه الصورة المحزنة.

ونجد الشاعر ابن الأبار القضاعي في رثائه لمدينة بلنسية يقول :-

يُاَلَلجزيرَةِ أَضْحَـى أَهْلُهَا جَزَراً ... لِلْحَادِثَاتِ وَأَمْسَـــى جَدُّهــا تَعِسَا
فــي كلَّ شارقةٍ إلمام بارقةً ... يعــودُ مـأتُمها عِنَد العِدا عُرُسا
تقاسَمَ الرُّومُ لاَنَـالَتْ مقاسِمُهُمْ ... إلاّ عَـقَائِلَهـاَ المَحجُـوبَةَ الأُنُسَا
مَدائنٌ حَلّهَا الإِشْرَاكُ مَبْتسِماً ... جَـذْلاَنَ وَارتْحَــلَ الإِيمَانُ مُبْتئِسَا
وَصَيْرَّتها العَوَادِي العائِثَاتُ بِهَا ... يَسْتَوْحِشُ الطّرْفُ منها ضِعْفَ مَاأَنِسَا
يالَلّمَسَاجِدِ عَـادَتْ للعدا بَيعاً ... وَللِنَّـدِاَء غَــدَا أَثْنَـاءهَـا جَرَسَا
لَهْفِي عَلَيهْا إِلَى اسْتَرْجَاعِ فَائِتِها ... مَدَارِسـاً لِلْمَثَانِي أصبَحَتْ دُرُسَا[31]

يمضي الشاعر في توليد الثنائيات الضدية موضوعياً في هذة الابيات، من الافعال والاسماء والجمل في سياقات لغوية تارةً ظاهرة وأخرى مضمرة وهي (أضحى وأمسى) وبين(المأتم والعُرُس) وبين(تقاسم الروم لانالت مقاسمهم) وبين (حَلهَّا الإشراك وارتحل الايمان) وبين (مبتسماً ومبتئسا) وبين (المساجد والكنائس) وبين(النداء والجرسا) وبين (استرجاع وفائتها) وبين (الحاضر والماضي) وكل هذه الثنائيات تتجاذب فيما بينها، في صراع عقيم بين المسلمين والصليبين فالملحوظ ((أنَّ الثنائيات الضدية تتسلسل وتتناسل بعضها مع بعض، فالأولى تولد الثانية والثانية توحي بالثالثة، وعن الثالثة تأتي الرابعة وهكذا دواليك))[32]، وهذه بطبيعة الحال تركت ترابطاً واضحاً في بنية النص، والشاعر بهذه الثنائيات التي آلت عليها الاندلس، فقد أصبح أهلها جزراً (ذبائح)، بسبب مانزل بها من حوادث، وأصبح جدَّها (حظها) تعساً، وتقاسم الروم عقلائها, فرحين بانتصاراتهم، وغادر عنها المسلمون مبتئسين يملأ الحزن نفوسهم ويرونَ معالم الدين ورموزه تُداس، إذْ طوقت المصائب أهلها وأحالت حالهم إلى حال أخر، وهذه الثنائيات تبدو ذاتَ تالقٍ وتناسقٍ قوي بين المعاني التي تبدو متنافرة في ظاهرها، ولكنها بهذه المهارة الابداعية والتجسيدية تكتسب نوعاً من التلاحم والإنسجام.

ومن خلال توزيع هذة الثنائيات في النص نكتشف إن الشاعر يُبدي الحزن ويظهر الأسى على ماحلّ بالمدينة الجميلة وماحولها، ويثير عاطفته الدينية فقد انقلبت المساجد الى كنائس، وانهدمت مدارس القرآن، فصارت خرائب، وذوت حضارة المدينة وخبا نورها، لذا نرى أنّ الشاعر قد صورَ ذلك بثنائية ضدية استمدها الشاعر من الفضاء الديني، ودلَّ على الصراع الدائم بين الاسلام والكُفار، وهذه القصيدة جُلّهاْ قائمة على عنصر التضاد والمقارنة بين ماكانت عليه الاندلس وما حلَّ بها الآن.

ونجد ابن شهيد الاندلسي[33]، في رثائه مدينه قرطبة يقول :-

مافـي الطّلولِ مِـنَ الأَحّبةِ مُخْبِرٌ	فَمَنِ الذِي عَنْ حَالِهَا نستَخْبِرُ ؟
جَارَ الـزَّمانُ عَلَيهِمْ فَتَفَرَقُـوُا	فِـــيِ كُلَّ ناحِيَةٍ وَبَادَ الأكثرُ
جارت الخطوب على محل ديارهم	وعليهم فتفرقـت وتفرقوا
دَعْ الزمان يصوغُ فـي عرصاتهم	نـوراً تكادُ لـه القلوب تنور
عَهِدي بها والشَّمْلُ فيها جَامِـعٌ	مِن أهلِهَا والعَيْشُ فِيهَا أخْضَرُ
....	....
أيّامَ كانَتْ عَـيْنَ كلَّ كرَامـــةٍ	مِـنْ كُـلَّ ناحِيةٍ إليْهَـا تَنْظُرُ
أيّامَ كانَتْ كَفَّ كُـلَّ سَــلاَمَـة	تَـسْمُو إليْهَـا بالَسَّلاَمِ وتُبْدِرُ
حُزنْـي علـى سَرَواتِهَا وَرُواتِهَا	وَثِقاتِهَـا وَحُمَاتِهـا يتكرَرُ[34]

نجدُ الثنائيات الضدية في هذة الأبيات مِن خلال ما مزج الشاعر بين الماضي والحاضر، وكذلك مِن خلال الحركة الكامنة في التساؤل فيكون الجواب بالفراق والتشتت أيام المحنة وجور الزمان عليها فان الزمان لايترك أحداً وإن المصائب توالت عليها فقد كانت الأطلال وأكوام الخرائب صدى ذلك الواقع الاسود، إذْ يلتفت الشاعر فلايجد أحداً، يستخبر به فالناس كلهم صرعى ضمتهم القبور، وهذهِ الثنائية بين (الماضي والحاضر) تزيد من حدة التوتر، بين الواقع والحلم، الأمر الذي يجعل النص الشعري ذا نزعة حزينة[35]، هذا على صعيد الثنائية الضدية المعنوية في النص الشعري، أما الثنائيات الظاهرة باللفظ هي (جور الزمان وإنصافه) و(التفرق والتشتيت والتجمع)، يعني جمع الشمل، وبين (بادٍ وباقٍ).

فهذا يشير الى التغير في حالَ المدينة وأهلها وحُزن الشاعر العميق لما أصابَ مدينة قرطبة من خراب، وما أُلحق بأهلها من التفرق والتشتت بعد أن كانت قرة للعين وكانوا هم زينتها وبهجتها، ولعلهُ من الطبيعي أن يتفجرهذا الرثاء من عاطفة إنسانية صادقة، لذا نرى الشاعر استطاع أن يوظف هذه الثنائيات في قصيدته ويجعلها تتصارع فيها المتناقضات الناتجة من معاناة الاندلس.

ونجد الشاعر ابن حزم الاندلسي[36]، يرثي مدينتهُ قرطبة اذ قال :-

سلامٌ علـى دارٍ رَحَلْنَا وغُودِرَتْ	خَلاَءٌ مِــن الأهْلينَ مـوحشةً قفْرا
نَرَاهَا كأنْ لم تغْنَ بالأمْسِ بَلْقعا	وَلاَ عَمَرَتْ مِـنْ أهلِهَـا قَبْلَنا دهْرا
فيا دارَ لـم يُقْفِرُك منا اختيارنا	وَلَــوْ أننَا نستطيـعُ كُنْتِ لنا قبْرا
ولِكن أقداراً مِــنَ اللهِ أنفذَتْ	تدَمَّرُنا طوْعـاً لِمَـــا حَلّ أوْ قهْرَا
ويـا خيـرَ دارٍ قَدْ تُرِكتِ حميدَةً	سَقَتْكِ الغـوادَي مــا أجَلَّ ومَا أمّرا
فصبراً لسَطوْ الدَّهْرِ فيهمْ وَحُكْمِهِ	وَإنْ كان طَعْمُ الصَّبْرِ مستثقلاً مُرّا[37]

تتكثف الثنائيات الضدية في هذهِ الابيات، في سياقات لفظية حاملة مفارقات رئيسة مثل(الرحيل والبقاء) و(الموحشة القفرة والعامرة) و(قفرك موحشة وخراب بعد الحسن)، وإنّ الشاعر قد ترك قرطبة جبراً ولو استطاع لآثر البقاء على الرحيل، وان تكون له قبرا، فكان الشاعر يتصارع مع نفسهِ في الرحيل والبقاء متقلباً بين هذا وذاك.

استهل الشاعر قصيدتِه بثنائية (الرحيل والبقاء) الرحيل ظاهر باللفظ والبقاء مُستتر في خفايا الصورة وهو يدرك حالة الانفصال بين الرحيل والبقاء بسبب الصراع وحدة التوتر بين الواقع المأساوي الذي يعيشهُ الاندلسيون والواقع قبل النكبة، وبهذا حولت عاطفة الشاعر الحزينة والألم الشديد صوراً تُثيرُ فينا الحزن ونجد إبن حزم الاندلسي يصف لنا هذه المحنة بعبارات مفعمة بالمرارة والألم.

يقول: ((وقد أخبرني بعض الوُراد من قرطبة، وقد استخبرتهُ عنها، وقد أمحت رسومها، وطُمِست أعلامها، وخفيت معاهدها، وغيرّها البلى، وصارت صحارى مجدبةٍ بعد العُمران، فيافي مُوحشة بعد الانس، وخرائب منقطعة بعد الحسن، وشعاباً مُفزعة بعد الأمن... تبددَّ شملهمُ فصاروا في البلاد أيادي سبا... فأبكى عيني، وأوجع قلبي، وقرع صفاة كبدي ...))[38].

وهذه الصور ينتزعها من الواقع الذي يعيشهُ، فقد راى ما أصاب قرطبة إذْ غدت خالية من أهلها، كأنها لم تغنِ بالأمس، كأنها لم تكن قرطبة داراً للعلوم وكأنها ماحوت ناساً، ولاعمرها أهلُ لكن للأسف شاءت الاقدار وماشئنا، ثم يُناشد الشاعر الزمن أن يبلغهم التحية حيثما كانوا وأينما حلوّا، وليصبروا على مأأصابهم، ونرى الشاعر يزرع الأمل في النفوس ويُنَمي الطموح والتفاؤل، والسبب في ذلك حتى لايتسلل اليأس إلى القلوب فيحطمها ويُنسيها الموطن الام قرطبة.

وَنجد شاعراً مجهولاً يُرثي مدينة رندة حينما سقطتْ فيقول :-

أحقاً خَبَا مِنْ جَوَّ رَنْدةَ نُورُها ... وقَدْ كُسِفَتْ بعَد الشموس بُدوُرُهَا
وَيَالَعزَاءِ المــؤمنينَ لِفَاقةٍ ... على الرُّغْم أغْنَى مَنْ لَدَيْها فَقِيرُهَا
لأُندلسٍ ارتجْت لَهَا وتَضَعْضَعَتْ ... وَحُــقَّ لَّدَيْهاَ مَحْوُهَـا وَدُثُوُرُهَا
مَنَازِلُهَا مصْــدُوُرَةٌ وبَطاحُهَا ... مَـدَائِنُهَا مَوْثُــورَةٌ وَثُغـُورُهَا
وَقد لَبِستْ ثَـوْبَّ الحِدَادِ ومَزَّقَتْ ... مَلاَبسَ حُسْنٍ كانَ يزهـو حُبُوُرهَا
فأحَياؤُهَا تُبدِي الأَسَـى وَجَمَادُهَا ... يَكَادُ لِفَرْطِ الحُـزنِ يَبْدُو ضَمِيرُهَا
فَلَوْ أنَّ ذا إلْفٍ مِـنَ البَيْنِ هِالكٌ ... لَذابَتْ رَوَاسِيهَا وَغَابَـتْ بُحوُرَهَا
عَلَى فُرْقَةِ الدِّينِ الذِي جَاءهَا بِهِ ... بَشِيـرُ الأَنَامِ المُصَطَفَى وَنَذِيرُهَا[39]

تجّلتَ الثنائيات الضدية في هذا النص عن طريق استهلال الشاعر رثاءه متسائلاً مذهولاً، لم يصدق الخبر، عن طريق الاستفهام الذي يفهم منهُ ثنائية حضور وغياب، فالحضور يتمثل في التساؤل، هل إنَّ النور والضياء والحياة قد انطفأ من الاندلس بشكل عام وهذه المدينة بشكل خاص، أمّا الغياب فيتمثل بأنَّ الشاعر يرسم لنا صورة مميزة لحال رندة الذي انقلب الحال فيها على عقب، وكان هذا الإنقلاب جذرياً لكل مناحي الحياة وخصوصاً النواحي الدينية.

وقد توزعت هذه الثنائيات على جسد النص لتشيع فيهِ حالة الإنكسار والحزن، والألم، والتلاشي والتفريق، والتشتيت، واستحالة العودة، فالزمان مضى ولن يعود، ويتمنى الشاعر عودتهُ ولكن الشاعر يعلمُ في قرارة نفسهِ إنَّ هذا لايكون ولايحدث بالمرة، والثنائيات التي كانت في مستهل القصيدة، قد ولدت فيهِ ثنائيات عدة منها(الأخفات والنور)و(الشموس والبدور) و(الغني والفقير) و(الإحياء والطمس).

وقد صور الشاعر موقف الانسان الأندلسي المغلوب على أمره، فإنه يصور الفجيعة في الأندلس كلهُ أو بعضهُ، إنّهُ تصوير المنازل والديار والمدائن، حداد وأسى وحزن بعد أفراح وانبساط ونبض حياة جميلة رائعة، وهذه الثنائيات الضدية التي أطَّرت القصيدة بجوٍ مِن الحزُن والمأساة والتوتر، وهذه المفارقات والتناقضات التي صورها الشاعر والتي جسّدَ فيها الحالة التي آل إليها الاندلسيون من التفريق والتشتيت التي طالما جمعها الدين الاسلامي وجاء بها النبي (صلى الله عليه واله وسلم) يبشر بتعاليم الدين الاسلامي الذي كان يعمل على انتشال البشرية من الظلام الى النور، مِن الوحشية الشرسة إلى الإلف والأمان، من التفرقة والتشتت إلى الوحدة والتآصر والتعاون.

لكن الهجمة الافرنجية قد حطمت ما جاء به الاسلام وقد وضح الشاعر ذلك بصورة ضدية جميلة في نهاية القصيدة بقوله :-

على فرقة الدين الذي جاءها به ... بشير الأنام المصطفى ونذيرها[40]

وهذا يشير إنّ الاسلام عمل على الوحدة والتعاضد اذا ماقورن بالشرك الذي عمل على الفرقة والتنكيل، ويمكن توضيح تجلي الثنائيات الضدية بالمخطط الآتي:-

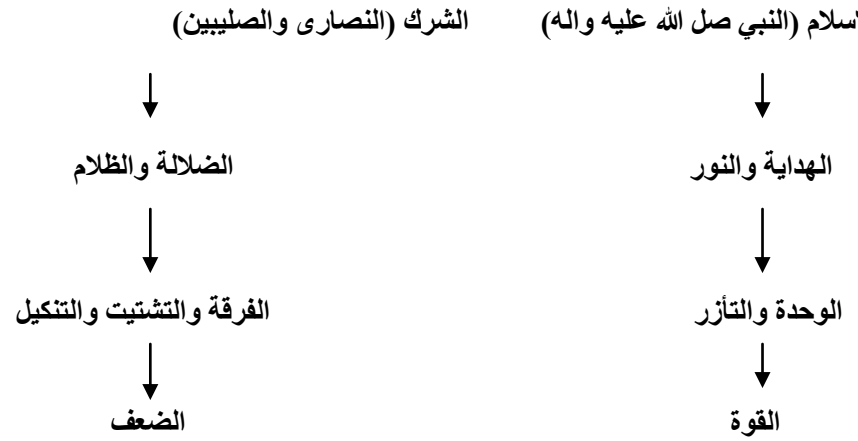

ونجد إبن فرج السُميسر[41]، في رثائهِ لمدينة قُرطبة إذ يقول :-

وقَفْتُ بِـالزَّهرَاءِ مُسْتَعْبِراً ... مُعْتَبِـرا أنـدُبُ أشْتَـاتا
فَقَلتُ : ياَزَهْرَا ألاَ فَارْجَعِي ... قَالتَ : وَهَلْ يَرْجِعُ مَنْ مَاتَا
فلَمْ أزَلْ أبْكي وَابْكـي بِهَا ... هَيهْاَت يُغْنـي الدَّمْعُ هَيهاتا
كأنَّما آثارُ مـَن قد مَضـىَ ... نـوادِبٌ يُندبـنَ أمـواتا[42]

تظهر الثنائية الضدية في هذه الأبيات عن طريق توظيف الشاعر للألفاظ (الرجوع _الذهاب) الذي يعني البقاء والفناء، الحياة والموت، ومِن خلال وقوف الشاعر على الأطلال معتبراً، يندب أشْتات قُرطبة، كما سماها بالزهراء طالباً منها أن تعود كما كانت عليه في العهد السابق ولكنّ هذا الطلب لا يتحقق.

وحالة قرطبة تساهم في ابراز أثر البكاء على الشاعر في اختيار الالفاظ المعبرة عن حالتهِ حينما وقف مناجياً أطلال الزهراء وعليه فان الصورة البكائية لم تقتصر على تصوير شدة بكائه فحسب، بل إمتد إلى تصوير التفاعل الفني والنفسي بين الشاعر وآثار الزهراء وذلك حينما صورها بنساء يندبن أمواتاً إذ ان الزهراء كيان الشاعر ووجدانه، وقد صور الحوار بين الشاعر والاطلال مشاعر الحزن والتوجع من خلال النداء يازهرا، و فعل الأمر فأرجعي، والاستفهام، وهل يرجع من ماتا، فهذا الإنقلاب في حدِ ذاته هو ثنائية ضدية بين حالتين، ... وهذا مايدلُّ على قدرة الشاعر اللغوية التصويرية في التأثير في القارئ اوالمتلقي.

ونجد الشاعر المجهول الذي خصَ طليطلة بقصيدة طويلة اذ قال فيها :-

لِثكْلِكِ كَـيْفَ تبتسِمُ الثغُورُ ... سَرُوراً بَعدَمَا سُبِيـتْ ثُغُـورُ
أمَـا وأبي مُصـَابٌ هُدَّ مِنَهُ ... ثبيرُ الـدَّين فاتَّصَـلَ الثَبيرُ
طُلَيْطِلَةَ أباحَ الـكُفرُ مِنهاَ ... حِمَاهـــا إنَّ ذا نبـأ كبيـرُ
....
ألمْ تكُ مْعِقلاً لِلدَّيـن صَعْباً ... فـذَلّـَة كَمـَا شَـاءَ القَدِيرُ
وأخْرِجَ أهلهَا مِنهَا جَمِيعـاً ... فَصَارُوا حَيْثُ شَاءَ بهـمُ مَصيرُ
وكَـانَتْ دَارُ إيمَانٍ وَعِلْـمٍ ... مَعَالِمُها التـي طُمِسَـتْ تُنيرُ
فعادت دارَ كُفْرٍ مُصْطفـاةٍ ... قَدْ اضطَربَتْ بأهْلِيهَا الأمـورُ
مَسَاجِدُهاَ، كنـائسُ أيَّ قلْبٍ ... عَلَـى هذا يُقِرُّ ولا يَطيـرُ؟
فَيَا أسَفَاهُ! يـاأسَفاهُ حُزْناً ... يُكَرَّرُ مـاتكرّرَتِ الـدَّهُوُرُ[43]

تنكشف الثنائيات الضدية في هذا النص، الظاهرة باللفظ، وهي (الفرح والحزن) و(أباح الكفر منها حماها) و(معقلاً للدين صعباً فذلّه كما شاء القدير) وبين(التشيد والطمس) وبين (دارَ أيمانٍ ودارُ كفرٍ) وبين (المساجد والكنائس) وبين (العّز والذُّل) عبْرَ تجسيد الشاعر للصور المؤلمة التي أباحت الكفرُ لحمى طليطلة، يجنح الشاعر إلى تصوير الاحداث في نفسه فهو يرى إنّ ماحل بهؤلاء وماصارت إليه دولهم كان نتيجة طبيعية لمسلكهم الشائن وانغماسهم في الشهوات، و أضاعوا البلاد مِن حيث لايحتسبون وهم بين الكأس والوتر[44].

ويمضي الشاعر مستنكراً سقوط المدينة، منعطفاً على المشاعر الدينية، مظهراً ماأصاب المدينة من تحول ديني فبعد أن كانت دار إسلام تحولت الى دار نصرانية وأما مساجدها فقد صارت كنائس بين عشية وضحاها، وأما أهلها فقد صاروا بلا مأوى مشردين، وهنا يذوب الشاعر ألماً و حُزناً وأسىً بأهاتٍ نابضة حية متحركة مع الحوادث، فيقف متسائلاً ومتألماً وحائراً، أيّ قلبٍ هذا الذي يَقرُّ لما يحصل في المدينة من دونَ أن يَهبَّ لنصرتها واستلالها واخراجَها من هذا المأزق، وتتكثف في الثنائيات الضدية لغة التحدي إثباتاً للوجود أمام العدو الاكبر (الصليبيين)، وبهذا ندرك قدرة الشاعر وتمكنهُ مِن التعبير عن آلامه ومأساته ومعاناته بالثنائيات الضدية التي رتبها ونظمها لتُخرج هذا الجو المؤلم في المرثية.

وَنجد الشاعر أبا البقاء الرندي يرثي الأندلس مازجاً كل ذلك بالبكاء على ماأصاب الاسلام من ذُلَّ إذ يقول :-

دهـى الَجزيَرَة أمـرٌ لاَعَزَاَء لَهُ   هَوَى لَهُ أحـدٌ وأنهدَّ ثهـلانُ
أصَابَها الَعْينُ فِي الإِسْلاَم فِامتحنتْ   حَتّـى خَلَتْ مِنْهُ أقطَـارٌ وبُلدانُ
فَاسْأَلْ بَلَنْسِيةَ مَـاشَأنُ مُـرْسِيَةٍ   وَأينَ شَـــاطِبةَ أمْ أيْنَ جَيّانُ
واينَ قـرطبةُ دارُ العلــومِ فَلَمْ   من عالِمٍ قَدْ سَمَا فيها له شَانُ
وأينَ حِمْصُ وَماتحوِيِهِ مِــنْ نُزُهٍ   وَنَ ْـهرُها العَذْبُ فيـاضٌ ومَلآنُ
قـواعِدَ كُـنَّ أركانَ البِلاَدِ فَمَا   عَسَى البَقَاءُ إذَا لَـمْ تبْقَ اركَانُ
تَبكِي الَحِنَفيةَ البَيْضاءُ مـن أَسَفٍ   كَمَا بَكـى لفراقِ الإلـفِ هَيْمَانُ
عَلَــىَ دِيَارٍ مِـنَ الإسْلاَمِ خَاليَةٍ   قَدْ أقْفَرَتْ وَلَـها بالكُفرِ عُمْرَانُ
حَيْثُ المَسَاجِدُ قَدْ صَارَتْ كنائسُ ما   فيُهـنَّ إلاّ نَوَاقِيـسُ وَصُلْبَـانُ
حَتىَ المَحَارِيبُ تَبْكِي وَهْيَ جَامِدةٌ   حَتَى المَنَابِرُ تُرثـي وَهْيَ عِيدَانُ(45)

كشفت لغة التضاد في هذه الابيات موضوعياً إنّ الشاعر بعد أنْ تأكدَّ من نزول الكارثة التي كانت كفيلة بأن تزلزل الجبال الراسية في الأماكن المقدسة، فقد حدث تغيير في حال الأندلس في الماضي وما آلت إليه الآن، ونحس من تكرار أداة الإستفهام الإنكاري (أين) في بداية الصدر وأردفها في بداية العجز، بفداحة الفجيعة والنكبة،أن الشاعر يحاول من خلالها أن يرسخ في ذهن السامع تحسره على المدن الجميلة العظيمة العزيزة عليه التي سقطت وكانت تتلو الواحدة منها الأُخرى وكأنها في سباق إلى الهاوية، فتمثلت في ثنائية ضدية هي حالة الأندلس فانبثقت ثنائية حضور وغياب، فالحضور يتمثل، بـ أين شاطبة ... وأينَ جيان ... وأينَ حمص...، أما الغياب فيتمثل في انّ هذه المدن قد نزلت بها النكبة، وتغير حالها ومعالمها، لذا رأينا الآلاَم تجيش في صدرِ الشاعر مع الذكريات الدامية التي لاتبارح مخيلتهُ، وكلُ ذلك نابع من التجربة الحيّة الخاصة التي مرَّبها الشاعر وقت تسطيرهُ لهذه المعاني الباكية فظهرت قصيدتهُ حيّة مثيرة للمشاعر، ثمة مزدوجات تشكل ثنائية ضدية قائمة على وجهين متضادين أحدهما بارز في الالفاظ في سياقات لغوية مِن أفعال وأسماء وحروف كما في (كُنَّ أركان، ولم تبقَ أركان) اذ يبين هذا التضاد والتقابل بين طرفي البيت الذي يؤكد على الزمن الماضي (كان له قواعد) في الطرف الأول، ونفسه في الطرف الثاني للبيت كما برزَ في لفظة (لم تبقِ أركان)، لكن الشاعر يرجو غير ذلك، وهذا يعني طغيان السلب عن الايجاب.

لذا تتكثف الثنائيات الضدية في سياقات حاملة بنى رئيسة مثل، ((أقفرت وعمرت)) و(المساجد صارت كنائس) وبين(البكاء الذي يمثل الحركة، والجمود يمثل السكون)، إذن هناك (مفارقة بين الحركة والسكون) فهي ثنائية بحد ذاتها، فالحركة فيها حياة متألقة، أمّا السكون فهو جمود يوحي بالفناء، وتلك الثنائيات هي وسيلة استعملها الشاعر في البكاء على الاندلس، فقد كانت صفتها الاولى والاخيرة الصفة الاسلامية، فان ذكر هذه الرزايا تثير نخوه المسلم لينطلق الى الجهاد اذا كان به بقية من نخوة إسلامية، ومن الملاحظ أن الشاعر يركز على التحولات في الجانب الديني لأنهُ يرى أن المصيبة التي حلّت بالأندلس حلّت بالاسلام، فالمتلقي يجد أن هذه الأبيات تتفجر من نفس كليمة وفؤاد محزون، وقد حرص الشاعر بثنائيات على إثارة المتلقي وتفاعلهِ مع المحنة التي أصابت الأندلسين، لذا تعُد هذه المرثية مِن أروع المراثي.

أمّا هارون بن هارون (46)، فقد بكى مدينة إشبيلية قائلاً :-

ياحِمْصُ أقْصَدكِ المقْدُورُ حِينَ رَمَـى   لَمْ يَرْعَ فِيكِ الَـرّدَى إلاّ وَلاَذِمَمَا
جَـرَتْ عَلَيْـكِ يَدٌ لَلدهرِ ظَـالِمَةٌ   لاَ يَعْدِلُ الدّهرُ فـي شئٍ إذا حَكما
مـاكنْتُ أحْسِـبُ أنَّ الحَادِثَـاتِ إذَا   همَّتْ بِكَ السُّوءُ لاَتَلْقَى لَكَ السَّلَمَا
وَلاَتَـوَهَّمْتُ ذَاكَ الـحُسْنُ يَطْمُسُـهُ   رَيْبُ الزَّمَانِ وَيَكْسُـو نُورُهُ الظُلَمَا
يأَعْينُ فابكي على حِمصٍ وَقُولِي لَهَا   مِنكِ البُكاءُ إذا لَـمْ تُرْسِلِيهِ دَمَا(47)

ظهرت الثنائيات الضدية موضوعياً في هذا النص عن طريق الالفاظ التي وظفها الشاعر في رثائه وهي (الظُلم والعدل) و(السوء والخير) فجعل الشاعر اللائمة كُلها على القدر الذي رماها، والذي لم يرعَ حسباً ولاذمة ولايخجل من كُلَّ شئٍ، وبأن يد الدهر الظالمة قد جرت عليها وماكان الدهرُ عادلاً في أفعالهِ هذه، إذ كيفَ هانَ عليه كُل ذلك الحُسن فغيرهُ وطمسهُ ظلاماً دامساً، وتشكل ثنائية الضياء والظلام بنية محورية في النص فتبدو علاقة الشاعر بالضياء عميقة هروباً من غياهب الظلام، فالبياض دليل أمل وحياة حرة يسعى الشاعر إلى نيلها هروباً من ظُلم الزمان(48).

ثم يعود الشاعر ويقول :-

فَقَدْ أُصِيبيت بِهَا الدُّنْيَا وَسَاكِنُها   حَقّا وأصْبَحَ رُكنُ الدِّينِ قَدْ ثَلَماَ (49)

إنّ اصرار الشاعر وألحاحه على جور الدهر وقسوته وتغيير معالم المدينة التي ذهب بكُلِ محاسنها، بكاها دماً بدل الدمع، ويطلب من عينيه أن تسَعفاه بالمزيد، لكن هيهات هيهات، فمن أين يفي بحق مدينة وقد عمت مأساتها، وعم الخراب في ربوعها، مأساة أصابت الدين والدنيا معاً وغيرت من معالم المدينة، فهو انقلاب جذري حقاً، استطاع الشاعر أن يوظف هذة الثنائيات في أبياتهِ لتجسد هذا التغيير الشامل.

أمّا الشاعر ابن اللبانة[50]، فقد رثى ماآل اليه ابن عباد فرثى فيه العز الزائل والمجد الراحل. الذي أدى الى خراب الاندلس، إذ يقول :-

تبكي السماء بدمع رائح غادي ... على البهاليل مِن أبناء عبَّادِ
عَلَى الجِبالِ التي هُدَّتْ قَواعِدُها ... وكَانَتِ الأرضُ مِنهُمُ ذاتِ أوتادِ
عريسة دَخَلَتْهَا النَّائِبات عَلَى ... أسَـاوِرٍ لَهُـمْ فيهَا وآسَادِ
وَكَعْبَةٍ كَانَتْ الآمالُ تُعْمُرُهَا ... فاليوَمَ لاعاكِفٌ فِيها ولابَادِ
تفرقّواُ جيرةً مِنْ بعدِ ما نُشْؤُوا ... أهـلاً بأهلٍ وأولاداً بأوْلادِ[51]

تجلت الثنائيات الضدية موضوعياً في هذهِ الابيات وهي بين (رائح، غادي) وبين (السماء،والارض) وبين(الأمس واليوم) وبين(التفرق، والجمع) وبين(الأهل، والأولاد) وبين(الأمل واليأس)، إذ وظفت الشاعر هذه الثنائيات ليندب العزّ الزائل والمجد الراحل لآل عباد ومأأثروا على الاندلس من تقتيل وتشريد وتنكيل بعد النكبة والكارثة التي حلَّت اليه الاندلس، وما تعرضوا له من فتن سياسية وإجتماعية، وحروب طاحنة، مدمرة أتت على الأخضر واليابس، فتفاعل الشاعر مع أزمات بلاده فأبدع في هذا اللون قصائد باكية تصوّر ماوقع عليها من مآسٍ مؤلمة إذ صور الشاعر الكارثة العظيمة التي تمثلت في ذهاب ملك ال عباد وعزهم، بسبب فساد الحكام فأدت هذة المصيبة الى تفريقهم وتشتيتهم بعد أن كانوا أهلاً وأولاداً فابتعدوا عن بعضهم، منهم من قُتِل، ومنّهم من سجن، ونفي خارج المدينة، فكان تصوير الشاعر مصيبا للموقف الذي آلت إليه.

ويقول الشاعر البسطي[52]، في رثائه للأندلس :-

لمصاب أندلس تصوبُ الأدمـعُ ... ولمـا جرى فيها تذوبُ الأضلعُ
فَلَهـا مَـعَ الأعَداءِ حـالُ تفزع ... تقضي بحسرةٍ مَن يَرى أويَسَمعُ
وتكادُ مهجتهُ لهُ تتصدعُ
جار الزمان علـى جميع جهاتها ... فأبـاح حـرمة أهلهـا لعداتهـا
أتـرى الإلـه يقيلهـا عـثراتها ... ويزيلُ ماهي فيهِ مـن غمراتِهـا
بدنو نصرٍ بالفتوح مشفَّعِ

فقد أحـال عدوهـا أحـوالها ... ومـن الخطوب أذاقها أهوالهـا

وأفاضَ فـي أقطارهـا إذلالها ... لمـا أبـادَ بـلورقـة أبطالهـا

يوم العروبة كان فيه المصرع

ذهب الجميع مجاهدين كما ابتغوا ... وحووا هناك مِن الشهادة ماحووا

مـاذا نكوا أعدائهم مـاذا نكـوا ... ولربما منهم أسـارى ماافتـدوا

كم أمرضوا مِن خاطرٍ كم أوجعوا [53]

نجد الثنائيات الضدية في هذه المرثية المخمسة قائمة على بنى متمحورة بمواضع عدة ذات متناقضات ففي المقطع الأول نجد الثنائيات الضدية هي (تصوب الادمع، وتذوب الاضلع) فالثنائية تعني الألم الظاهر المتمثل بـ تصوب الأدمع والألم الباطن، أمّا في البيت الثاني فان المدينة لها الان مع الاعداء حال تفزع، فيقابلها أن هناك لها مع الاحباب والأصدقاء في السابق حال يفرح، هذه ثنائية بين الماضي المتمثل باسعاد الاحباب وبين الحاضر (إفزاع الاعداء).

وأفاد الشاعر من كلمة جميع في توضيح الجهات المتقابلة في قولهِ:-

جارَ الزمان على جميع جهاتها ... فأباح حرقه أهلها لعداتها [54]

(فجور الزمان على جميع جهاتها) في الوقت الحالي يقابلهُ عدله لجميع الجهات في الماضي كما شمل الشطر الثاني ثنائية (الاهل والاعداء) إذ استباح الاعداء حرمة الاهل.

وقد أفاد الشاعر مِن الجمل لتوظيف الثنائيات ففي قوله :-

أترى الإله يقيلها عثراتها ويزيل ماهي فيه من غمراتها [55]

بدنو نصر بالفتوح مشفّع

نجد (العثرات، والغمرات/ النصر) وهي ثنائية ركيزها التقابل بين الجمل لبيان الحالتين المتناقضتين، الحال الظاهرة المتمثلة بـ(يقيلها عثراتها ويزيل عنها غمراتها) تعنى السيطرة من قبل المحتلين/ يقابل دنو نصرٍ بالفتوح مشفع وهي الحال المرتجية من أهلها الابطال الذين يجاهدون بأنفسهم مِن أجل إعادتها إلى سابق عهدها، وهذا مايأملهُ الشاعر ويرجوه، ومن هنا انبثقتْ هذه الثنائية.

فنرى إنَّ العدو في قولهِ :-

فقد أحال عدوها أحوالها ومِن الخطوب أذاقها أهوالها

وأفاض في أقطارها إذلالها لما أباد بلورقة أبطالها

يوم العروبة كان فيه المصرع[56]

قد بدا مسيطراً على المدينة فغَيَّرَ أحوال المدينة، وأذاقها الشدائد، وأكثر وبالغ في إذلال أهلها وقتل أبطالهمُ في يوم العروبة الذي كان أشد الايام عليها، لكن الشاعر لم يستسلم لما حدث بل بثَّ روح النخوة والحماسة والانتفاضة على الحالة والوضع الذي هم فيه من خلال الثناء على المجاهدين[57].

ذهب الجميع مجاهدين كما ابتغوا وحووا هناك من الشهادةِ ماحووا

ماذا نكوا أعداءهم ماذا نكوا ولربما منهم أسارى ماقتدوا

كم أمرضوا مَن خاطركم أوجعوا [58]

نرى في قول الشاعر (الجميع) أي ماتخلّف أحدٌ فيهم عن الجهاد وقد تكلَّل جهاده بالشهادة، فلما خسر مدينتهُ وكرامتهُ أصبح بالمقابل رابحاً الجهاد والشهادة، فنستشف من ذلك ثنائية (الخسارة الزائلة/ الربح الدائم) وبالنهاية كان حاصل هذه الثنائية هي (الخسارة، الربح) وقد خسرَ الاعداء ومرضوا وكثرت فيهم الجراحات وأخذوا أسارى[59]، وخلفوا المرض ووجع القلب،وهذه المرثية المخمسة، أكدت براعة الشاعر في توظيف الثنائيات الضدية فيها، وتوضيح الصراع الدائم والمستميت بين الاندلسيين والأعداء المحتلين، فالشاعر استطاع أنِ يجسّد لنا ثنائية هي عدم الانتصار وتعني الخسارة يقابلها الشهادة وهي النصر الدائم، ومما سبق عرضه يتَّضح أنَّ رثاء المدن الاندلسية إنّما هو نابع من واقع ظروف الحياة في الاندلس، لذا نرى الشاعر الأندلسي في رثائه تفاعل مع أزمات بلاده.

لذا فان الرثاء لم يكن هدفة البكاء والالم والتفجع على ماضاع فقط، وإنما كان همّهُ بثَّ روح التأهُّب والاستعداد لرد العدوان عن البلاد، فأصبح أكثر شمولاً وأشد وضوحاً، وقد عبرَّ عنه، بالحزن الشديد، والشكوى المرة والبكاء المجهش، فالرثاء تناسق وتمازج وتناغم مع الثنائيات الضدية ليضيف جواً جديداً للإستغاثة بكل من يعرف الأسلام والعروبة والوطن، ولينتشل هذا الوطن من الهجمة الوحشية الكافرة التي لاتعرف كل معاني الانسانية.

الخاتمة :-

- بعد هذه الجولة والانتهاء من دراسة الثنائيات الضدية في شعر رثاء المدن الاندلسية لابد من إيراد ابرز النتائج التي توصلت اليها هذه الدراسة وهي:-
- لقد كان شعر رثاء المدن المجال الرحب الذي امتدت الثنائيات الضدية على حدود مساحته، وقد شهد توظيفهم إياها أداء متميزاً عكس حسهم ووعيهم العاليين بالشكل الذي كفل لهم جانباً من جوانب التجديد الذي أسبقوه على أنفسهم او أشعارهم .

أوضح التمهيد، الثنائيات الضدية وسبب تجليها عندهم، من خلال فهمهم لأنماط الحياة العصرية التي تتطلب التغير في المفاهيم الحضارية والفكرية، ومثل هذا يتطلب تغيراً في المبادئ الشعريةالتي كانت خاصة لمقاييس خارجة عن ماهيتها، فدعوا الى الانطلاق بالشعر الى أفاق الحياة وتحريره من قيوده واكياله وأساليبه التقليدية القديمة التي تفوق الشاعر عن الوصول إلى أهدافة الانسانية ...

تلك اهم النتائج التي توصل اليها البحث .

---

[1]ينظر : الشعر في عهد المرابطين والموحدين في الاندلس : 294 .

[2]ينظر : رثاء المدن في الشعر الاندلسي : 98 .

[3]لسان العرب مادة : ثنى .

[4] المعجم الفلسفي : 379- 380 .

[5] الكتاب : 1/ 24 .

[6] قواعد الشعر : 62 .

[7] سورة الأعلى : الاية : 13 .

[8]نقد الشعر : 147 .

[9] العمدة : 2/ 9 .

[10] أسرار البلاغة : 20 .

[11] تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان أعجاز القران : 14 .

(12) جدلية الخفاء والتجلي : 9 – 10 .
(13) تحليل الخطاب الشعري استيراتيجية التناص : 160 .
(14) الفلسفة الاخلاقية الافلاطونية عند مفكري الاسلام : 23 .
(15) تحليل الخطاب الشعري استيراتيجية التناص : 160 .
(16) الأدب العربي في الاندلس : 197 .
(17) ينظر: شعر الاستصراخ في الاندلس : 128 .
(18) الرثاء في العصر الجاهلي وصدر الإسلام : 5 .
(19) أُصول النقد الادبي : 19.
(20) نقد الشعر : 118 .
(21) العمدة : 2 / 358 .
(22) الادب العربي في الاندلس : 195 .
(23) مقالات في الشعر الجاهلي : 333 .
(24) المصدر نفسه : 333.
(25) الرثاء :5 – 12 .
(26) ينظر : في الادب الاندلسي : 160.
(27) المصدر نفسه : 160.
(28) حول الادب الاندلسي : 83 .
(29) هو إبراهيم بن خلف بن محمد ... ابن فرقد القرشي العامري ، محدث فقيه وشاعر عاش بين سنتين 484 هـ – 572 هـ ، ينظر :(الاحاطة : 1 / 191 – 192) .
(30) الاحاطة ، 1/ 192 – 193 .
(31) ديوان إبن الأبار :408-412 .
(32) الثنائيات الضدية في نقائض جرير والفرزدق والاخطل واثرها في إداء المعنى الشعري:67.
(33) هو أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن شهيد الاندلسي، وزير مِن كبار الأندلسين أدباً وعلماً مولدهُ بقرطبة سنه (382 هـ) له شعر جيد، وتصانيف بديعة منها ((كشف الدك وايضاح الشك)) ((وحانوت عطار)) ((والتوابع والزوابع)) وكانت بينهُ وبين إبن حزم الظاهري مكاتبات ومداعيات، توفي بقرطبة سنه (ت 426هـ) ينظر: ترجمته في نفخ الطيب ، 1/ 621 – 623، والاعلام، 1/ 163 .
(34) ديوان إبن شهيد الاندلسي: 76.
(35) ينظر: الثنائيات الضدية في الشعر العربي القديم : 12 .
(36) إبن حزم هو أبو محمد علي بن أحمد بن حزم المولود بقرطبة في 30 من رمضان (سنة 384هـ) من أسرة ذات علمٍ وجاه ومال ، تَشَبعَ بجميع العلوم السائدة في قرطبة في نهاية القرن الرابع، فكان بذلك فقيهاً فيلسوفاً مؤرخاً شاعراً وأديباً ، مِن أعظم كتبه ((المتحلّ)) توفي سنة 456هـ ينظر: (الصلة / 894) .
(37) ديوان ابن حزم الاندلسي : 65 – 66 .
(38) طوق الحمامة في الإلفة والألاف : 222 .
(39) دراسات اندلسية : 376–378 .
(40) دراسات أندلسية : 376 – 378 .
(41) هو خلف بن فرج الألبيري المتوفي نحو 480 هـ، وكنيتهُ أبو القاسم ويعرف بالسُميسر، شاعر، سجار ساخر أصلهُ من البيرة، وسكن غرناطة، أدرك الدولة العامرية وإنقراضها، ينظر(الذخيرة ، ق2، م1/ 372) .
(42) الذخيرة: ق2، م1 / 372 .
(43) نفح الطيب : 4 / 483 .
(44) ينظر : ملامح الشعر الأندلسي : 288 - 289 .
(45) نفخ الطيب : 4 / 487 – 488 .
(46) ولد موسى ابن هارون بن يعقوب ابن عزرا الأندلسي في غرناطة حوالي عام 1055، في عائلة يهودية عريقة، ربما كانت لها مسؤوليات رسمية في ظل الحكم الإسلامي في الاندلس، ينظر: مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات وحقوق الإنسان في الأندلس.
(47) البيان المغرب : 381.
(48) ينظر: الثنائيات الضدية وأبعادها في نصوص من المعلقات : 43 .
(49) البيان المغرب : 381 .
(50) هو أبو بكر محمد بن عيسى بن محمد اللخمي الداني ، عرف بابن اللبانة من أهل دانية وهي مدينة بالاندلس من أعمال بلنسية من كبار الشعراء الاندلسين عاش منتقلاً يمدح بشعرة ملوك الطوائف ، وأختص بأثنين منهما :هما المعتمد ابن عباد ملك أشبيلية وناصر الدولة مبشر بن سليمان صاحب مَيوُرقة توفي سنة (507 هـ) في ميورقة ودُفِنَ فيها ، تنظر: ترجمتهُ الذخيرة / ق3/ م2/ 266 – 702)، والمغرب في حلى المغرب / 2 /409 - 414 .

(51)قلائد العقيان : 90 – 92 .
(52)هو محمد بن عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم القيسي – البسطي – ولِدَ في العقد الثاني من القرن التاسع الهجري وتوفي بعد سنة 890 هـ وهو من شعراء القرن التاسع عشر وهو أخر شعراء الاندلس ، (ينظر: أدب المحنة الاسلامية فيالاندلس : 60).
(53)ديوان البسطي :59 .
(54)المصدر نفسه : 59 .
(55)ديوان البسطي : 59.
(56) المصدر نفسه : 59.
(57)ينظر: لغة التضاد في شعر البسطي اخر شعراء الاندلس : 30.
(58) ديوان البسطي : 59 .
(59) ينظر : لغه التضاد في شعر البسطي اخر شعراء الاندلس : 30.

ثبت المصادر والمراجع

القرآن الكريم
1- الأدب العربي في الاندلس: د- عبد العزيزعتيق، دار النهضه العربية، بيروت- لبنان .
2- الأحاطة في أخبار غرناطة: تأليف أبي عبدالله محمد بن عبد الله بن سعيد بن أحمد السلماني الشهير بلسان الدين الخطيب (ت776هـ)، شرحهُ وضبطهُ وقدم لهُ ، أ، د- يوسف علي الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.
3- اسرار البلاغة: تأليف الشيخ الامام أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي (ت 471هـ) قرأهُ وعلق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر الناشر دار المدني بجدة .
4- أصول النقد الأدبي : أحمد الشايب، ط8 ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1973م .
5- الاعلام: خير الدين الزركلي (ت 1410هـ) ط5 ، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، 1980م.
6- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذاري أبو عبدالله بن محمد المراكشي (ت 712هـ) تحقيق الاستاذ: محمد أبراهيم الكناني، محمد زنيبر، محمد بن تاويت، وعبد القادر زمامة، ط1، 1406هـ- 1985م، دار الغرب الاسلامي، بيروت- لبنان .
7- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنشر وبيان أعجاز القرآن عبد العظيم بن عبد الواحد بن أبي الاصبع المصري (ت654هـ) تحقيق : د. حفني محمد شرف، لجنة إحياء التراث الاسلامي، القاهرة، د- ط ، 1383هـ .
8- تحليل الخطاب الشعري (استيراتيجية التناص) د- محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1985م .
9- الثنائيات الضدية دراسات في الشعر العربي القديم،د- سمر الديوب،منشورات الهيئة العامة، السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2009م .
10- جدلية الخفاء والتجلي كمال أبو ديب، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1979م.
11- حول الادب الاندلسي، د- قيصر مصطفى، مؤسسة الاشراف، بيروت.
12- دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، د- الطاهر أحمد مكي، دار المعارف القاهرة، ط1، 1980م .
13- ديوان ابن الابار، أبي عبدالله محمد بن الأبار القضاعي البلنسي (ت595- 658)، قراءة وتعليق، د- عبد السلام الهراس، وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية المغرب.
14- ديوان ابن حزم الاندلسي تحقيق، عبد العزيز ابراهيم، دار صادر، بيروت.
15- ديوان ابن شهيد الاندلسي، تحقيق، د- محي الدين ديب، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا- بيروت، بلا تاريخ، 1422هـ- 2002م.
16- ديوان عبد الكريم البسطي، نسخة الكترونية .
17- الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت547هـ) تحقيق، د- إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت- لبنان.
18- الرثاء، د- شوقي ضيف، سلسلة فنون الادب العربي دار المعارف مصر، ط2، 1955.
19- الرثاء في العصر الجاهلي وصدر الأسلام، بشرى الخطيب، مطبعة الأدارة المحلية، بغداد، 1977م.
20- رثاء المدن في الشعر الاندلسي، عبدالله محمد الزيات، منشورات جامعة قاريونس بنغازي، ط1، 1990م.
21- شعر الاستصراخ في الأندلس، عزوز زرقان، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 2008م.
22- الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، د. محمد مجيد السعيد، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، بغداد، 1980م.
23- الصلة: ابن بشكوال أبو القاسم خلف بن عبد الملك، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1996م.
24- طوق الحمامة في الإلفة والالاف، ابن حزم الاندلسي، تحقيق، فاروق مسعد، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
25- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني (ت456هـ- 1064م) قدم له وشرحه وفهرسه، د- صلاح الدين الهاوي و أ- هدى عودة، دار وكتبة الهلال، بيروت- لبنان، 2002م.
26- الفلسفة الاخلاقية الافلاطونية عند مفكري الاسلام، د- ناجي التكريتي، دار الاندلس، للطباعة والنشر والتوزيع، بغداد، ط1، 1979م.
27- في الأدب الأندلسي، د- محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت- لبنان، دار الفكر، دمشق- سورية.

28- قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، أبو نصر الفتح بن عبدالله القيسي الاشبيلي، الشهير بابن خافان(529هـ)، حققهُ، وعلق عليه، د- حسين يوسف طربوش، عالم الكتب الحديث، 2010، بيروت.
29- قواعد الشعر: أبو العباس احمد بن يحيى ثعلب (ت291هـ) حققه وقدم له وعلق عليه، د- رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1966م.
30- الكتاب: أبو بشر عمر بن عثمان بن قنبر الملقب بـ(سيبوية) تحقيق، عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1988م.
31- لسان العرب ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، 1388هـ- 1968.
32- المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية، د- جميل صليبا، دار الكتب اللبناني ، بيروت، د-ط ، 1982م.
33- المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد المغربي، تحقيق، د- شوقي ظيف، دار المعارف- مصر، ط2.
34- ملامح الشعر الاندلسي، عمر الدقاق، دار الشرق العربي- بيروت، شارع سورية - 1989م.
35- نفح الطيب من خصن الاندلس الرطيب، شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني(ت1041هـ)، تحقيق، د- إحسان عباس، دار صادر- بيروت.

الرسائل والأطاريح الجامعية

1- ادب المحنة الاسلامية في الأندلس، د- ربعي سلامة، اطروحة دكتوراة، جامعة قسطنطينية (1991- 1992م).

المجلات والدوريات

1- الثنائيات الضدية وابعادها في نصوص من المعلقات، د- غيثاء قادرة، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، فصلية محكمة، العدد العاشر، 1391هـ- ش/ 2012م.
2- لغة التضاد في شعر البسطي، آخر شعراء الاندلس، د- عهود عبد الواحد- كلية التربية ابن رشد.